Mehdi Ghouirgate

Les Empires berbères : constructions et déconstructions d'un objet historiographique

Berlin, De Gruyter
2024, 455 p., 9 ill., 7 tab.
ISBN : 9783111017112

Mots clés : Maroc, Berbères, Almohades, Ibn Tumert, Almoravides, Mérinides, Ibérie

الكلمات المفتاحية: المغرب، البربر، الموحدون، ابن تومرت، المرابطون، المرينيون، إيبيريا

يقع هذا الكتاب في ٤٥٥ صفحة بما فيها الملحق الببليوغرافي، وقد حرر بلغة فرنسية راقية ومتميزة وهو دسم وزاخر بالمعلومات الدقيقة والشاملة والمعقدة في بعض الأحيان، موثق بالصور والخرائط والجداول ويحتوي على عدد كبير من الاستشهادات التي، وإن كانت طويلة نسبيا في بعض المواضع، تأتي دوما في مكانها لتسند فكرة الكاتب واستنتاجاته. وللمؤلف كما يتبين في كل صفحة من صفحات الكتاب اطلاع مستفيض وعميق على المصادر العربية المتقدمة والمتأخرة والمراجع بلغات متعددة، وله إحاطة متميزة بواقع الميدان. ولا غرابة في ذلك فهو من كبار المختصين في تاريخ المغرب والأندلس ولاسيما في الفترة الموحدية. وهو أستاذ تعليم عال في جامعة بوردو وأستاذ مشارك في جامعة محمد السادس في الرباط ومتحصل على التأهيل الجامعي من معهد الدراسات العليا في العلوم الاجتماعية بباريس (EHESS) سنة ٢٠١٩، وهو أيضا عضو في معهد أوزونيوس (institut Ausonius) لعلم الآثار.

والكتاب حصيلة معرفة غزيرة وعميقة بتاريخ المغرب في العصور الوسطى وخاصة في العصر الموحدي، وفيه إلمام جيد بتاريخ أوروبا الغربية منذ عصر النهضة، ما مكن المؤلف من توضيح الكثير من المواقف التي اتخذها الغرب المسيحي. وهو يتعرض إلى مهنة المؤرخ وكيفية تعامله وتلقيه للمصادر التاريخية منذ الفترة التأسيسية (القرن ١١) إلى الزمن الحاضر. ويحاول أن يجيب على تساؤل مفصلي: هل يمكننا كتابة تاريخ المغرب؟ وهل أن المؤرخ المعاصر يعرف حقا المادة المصدرية التي يتعامل معها ويستعملها في بحوثه؟ هل هو ملم بخفاياها وخلفياتها التي تحدد في كثير من الأحيان المواقف والمنطلقات وحتى المناهج المتبعة ؟ هذا التساؤل استند فيه مهدي غويرقات (م. غ.) إلى قولة العالم الفرنسي بيار بورديو (Pierr Bourdieu): «الإنسان يولد مهيئا لتقبل الأشياء كما هي وكما تصله، ولكن بعد أمد، وبالممارسة والمراجعات، يمكن أن يتولد لديه فكر حر وناقد.» وعندئذ، في هذه المرحلة من الوعي، يمكنه أن ينجز عمليات «التركيب والتفكيك للمواضيع التاريخية». واعتقادنا أن الباحث كان محقا في هذا الاستفسار فكثير من المؤرخين القدماء والمحدثين يستعملون المعطيات التاريخية دون أي وعي بخلفياتها ويكتفون بالنقل والأخذ دون إعمال الرأي.

وغاية الكاتب منذ البداية التأمل في الإنتاج المعرفي المتعلق بالإمبراطوريات البربرية، أي الدولتين المرابطية والموحدية ما بين القرنين الثاني عشر والثالث عشر الميلاديين. والدولة الموحدية هي التي وحدت المغرب كاملا وشبه الجزيرة الإيبيرية (إسبانيا والبرتغال)، وهي فكرة كثيرا ما رددها المؤلف في ثنايا الكتاب. وقد أفرز كل هذا الاهتمام كتابا يستعرض باستفاضة وعمق المصادر منذ العصور الوسطى لينتهي إلى الإنتاج الفكري الحديث والمعاصر، موفرا سلسلة متتالية من «الطبقات التاريخية» في توليفة غزيرة وثرية إلى أبعد حد. وهو يوفر مقاربة تحليلية نقدية تعاقبية (diachronique) تعتمد التمشي الكرونولوجي من القرن الحادي عشر إلى القرن الثالث عشر، مركزا بالخصوص على إنتاج الأوروبيين، وتحديدا الفرنسيين والإسبان، الذين كانت لبلدانهم سياسة استعمارية توسعية في المنطقة المغاربية، لينتهي إلى الزمن الحاضر كما يتضح من اطلاعه على دراسات عبد الله الفيلالي وجان-بيار فان ستيڤل (Jean-Pierre Van Staëvel) ولاسيما تلك التي مكنت من تحديد موقع مسقط رأس المهدي بن تومرت (ت. ١١٣٠)، إيجلي، الذي كان مجهولا إلى حدود ٢٠٠٦.

وفسر الباحث هذا التوجه الأوروبي نحو اكتشاف المغرب بقربه الجغرافي من إسبانيا تحديدا وبالتحولات الإستراتيجية التي بدأت تتبلور منذ استرداد الأندلس من الحكم الإسلامي في عام ١٤٩٢ وأثناء عصر النهضة، حيث بدأ اهتمام العلماء والرحالة والمستكشفين الأوروبيين بالماضي المغربي عموما (هذا الجار الآخر الكبير). وكانت هذه الكتابات منطلقا لنظرة مغايرة برزت في عصر الأنوار مع ڤولتير (Voltaire) فتجاوزت الفضول العلمي وحب اكتشاف المغرب لتشكل ضربا من ضروب اكتشاف الذات من خلال «المرآة العاكسة» التي يقدمها الجار المختلف. وشكل هذا التمشي سندا أساسيا «للثورة الثقافية والعلمية الأوروبية» التي كانت باريس قطبها الأساسي. وفي هذا المناخ العام، أضحت معرفة تاريخ المغرب ولا سيما تاريخ الموحدين، مادة أساسية وقاعدة إيديولوجية لـ «سردية وطنية» تعتمدها الدول المستعمرة (فرنسا وإسبانيا) والدول الوطنية المستقلة (المغرب والجزائر) لتبرير وجودها وإضفاء شرعية عليه.

وحتى يتسنى للباحث «إعادة النظر» في هذا التاريخ الشائك واستنطاق اللامنطوق أو المسكوت عنه (non-dit)، ولكي يتمكن من «تفكيكه وتركيبه»، اعتمد منهجا استدعى فيه عديد الاختصاصات كعلم الأنثروبولوجيا، والاقتصاد، والتاريخ، والفلسفة والديموغرافيا والآثار ومختلف الفنون الأدبية. ويمكن لقارئ الكتاب أن يلمس الثقافة الواسعة والفكر النقدي للمؤلف، ثقافة واطلاع لم نعثر عليهما لدى غيره من الدارسين، فله قدرة عجيبة على الإلمام بالموضوع والإحاطة بالجزئيات التاريخية التي لا نتفطن إليها عادة.

يتألف الكتاب من ستة عشر بابا، في كل باب فصول يختلف عددها. وهذه البنية، وهي خاصة بالمؤلف، يمكن أن ترهق القارئ بحكم تعدد الأبواب والفصول وغزارة المادة ودسامة المعلومات التي ترد في كل صفحة تقريبا، ولكن ذاك اختيار المؤلف الذي اتبعه عن وعي تام، وهو إذا ما تأملنا فيه، يوفر في النهاية بنية مترابطة متكاملة متجانسة. وقد عمد الباحث إلى أسلوب يتراوح بين التحليل العام والتحليل المجهري. وهكذا يمكن أن نقرأ فصولا تحليلية عامة في غاية الأهمية عن المصادر المفقودة أو تلك التي لم تصلنا منها إلا نسخ يتيمة وفصولا خاصة بالمصادر التي مثلت تحولا جذريا في الكتابة

التاريخية حول الفترة الموحدية، ككتاب عبد الواحد المراكشي أو ابن طفيل أو كتاب المن بالإمامة. هذه المصادر خصها الباحث بفصول مستقلة فيها دراسة مجهرية باعتبار أنها تشكل في نظره نقلة في الكتابات التاريخية. ومع احترامنا لاختيار المؤلف، كنا نود أن تكون الأبواب والفصول مرقمة ومبوبة حتى يسهل على القارئ متابعة الأفكار في تطورها وانسجامها.

يبرز الكتاب بشكل يثير الإعجاب المعرفة العميقة والدقيقة للإنتاج الأدبي والعلمي والمصادر التي كتبت باللغة العربية ويسلط الضوء على بعض المحطات الأساسية في العودة إلى الماضي الموحدي باستكشاف المخطوطات الموحدية التي تكتسي في واقع الأمر صبغة أدبية أكثر منها تاريخية، والتي أهملها المؤرخون العرب المعاصرون الذين ظلوا يستشهدون بالمستشرقين الأوروبيين ويعولون عليهم، بل يتولون ترجمة كتاباتهم أكثر من العودة إلى المصادر الأصلية.

ويرى م. غ. أن الرغبة في استلهام التراث الموحدي وبناء سردية وطنية انطلاقا من نشر وتحقيق بعض المصادر المتأخرة والهامة في نفس الوقت على غرار نفح الطيب للمقري (ت. ١٦٣٢)، الذي نشر بالقاهرة في مطبعة بولاق في القرن التاسع عشر، أعاد رسم ملامح العلاقة بين السلطة من جهة والأدباء من جهة ثانية.

أبواب الكتاب وردت على النحو التالي :

- ابن تومرت بين الأسطورة السوداء والأسطورة الذهبية (ابن تومرت أو إسلام مصمودة، الأسطورة الموحدية بعد سنة ١٢٦٩، مهاجمة ابن تومرت)؛
- بين المصادر المفقودة والمصادر الأحادية (مشكل معقد السّلالة، في البحث عن المصادر المفقودة)؛
- المصادر ما بعد الموحدية (الحنين إلى الماضي المجيد والأدب الراقي، في كيفية اجتثاث البدعة الموحدية، في زوال المصادر الموالية للموحدين، في نمو التحضر مع الإمبراطوريات البربرية)؛
- كتب الحوليات التي ترسي بعدا تحليليا بين الفترتين المرابطية والموحدية (في التخوم بين المرابطين والموحدين، المونوغرافيا كصنف أدبي لانتشار الثقافة في المغرب)؛
- عبد الواحد المراكشي وتاريخ تمجيد الموحدين (في إشكال التعريف به، المقارنة مع المشرق، في عودة مصدر منسي، في التعريف بالتطور الحضاري، التعريف بالمؤرخين المتفلسفين)؛
- الدراسات حول الموحدين بأوروبا (بين الخوف والاجتذاب، وصف إفريقيا)؛
- تقبل ابن طفيل (من نشأة الدراسات الموحدية إلى الاعتراف البريطاني)؛
- في إعادة تاريخ/ حولية موحدية منسية : المن بالإمامة (في مسيرة مصدر موالٍ، حول العنوان، النشرة النقدية لعبد الهادي تازي)؛
- الإمبراطوريات البربرية في عصر الأنوار (التحول الفولتيري، كاردون أول الفرنسيين المختصين في المغرب، لوي دوشينيي: المغرب في عصر لويس السادس عشر)؛
- تحول القرن التاسع عشر (الاستشراق محطة أساسية، الثورة العلمية وتأثيرها، الاستعمار)؛
- إدماج الأندلس في السردية الوطنية الإسبانية (خوسي أنطوني كوند الرائد، فرانسيسكو فرنانداس إي غونزالس: الأندلس في عصر الدراسات الوضعية)؛
- في البحث عن مركز الموحدين (رحلة تنمال، في القبيلة أو تاريخ في مفترق الطرق، زخارف الآثار، استمرارية الإعجاب بتنمال)؛
- الحماية وإعادة اكتشاف الإمبراطوريات البربرية (في ساعة الأصليين، ريني ميلاي وتأليف أول عمل عن الموحدين بالفرنسية)؛
- المعهد العالي للدراسات المغربية (إعادة اكتشاف الإمبراطوريات البربرية، مجلة هِسبريس، دراسة المخطوطات: إرث المعهد الأساسي، تأثير المعهد على المجتمع الفرنسي)؛
- الغرب الإسلامي في مقابل الغرب العربي الإسباني (الغرب الإسلامي ابتداع في الإطار الاستعماري، في نشأة مفهوم «العربي الإسباني»، أمبروزيو هويسي ميرندا وخاسينتو بوش فيلا في مفترق الطريق، الإمبراطوريات البربرية والكتابات النافية)؛
- الموحدون باعتبارهم تاريخا نموذجيا (التأثير الكولونيالي، الموحدون في الجزائر لمقاومة النزعة البربرية والعروبية، المغرب بلد الموحدين، الموحدون لتبرير الفكر الجهادي ...).

من خلال استعراض فهرس الكتاب يتبين أن م. غ. اعتمد مقاربة ثنائية تعتمد أولا على فهم المصادر ووضعها في إطارها ونسقها التاريخي والفكري العام، وثانيا على استعراض الأعمال المعاصرة التي لا يمكن فهمها خارج الظرفية الزمنية والجيوسياسية للفترة الاستعمارية.

في دراسة المصادر، سواء تلك التي فقدت أو تلك التي لم تصل إلا في نسخ يتيمة، وسواء كانت مناهضة أو موالية للإمبراطوريات البربرية وخاصة للموحدين، وُفّق الباحث في لمس الخيط الرفيع الذي قاد أغلب المصادر الوسيطية، ألا وهو نقد العقيدة، فالأدبيات الموحدية شنت حملة كبيرة على المرابطين واتهمتهم بالاقتصار على الفقه والجمود عنده ومحاربة ما سواه. وما دونه عبد الواحد المراكشي، صاحب المعجب في تاريخ المغرب، الذي خصه الباحث بدراسة مستقلة، يدخل في خانة الموقف المناهض للمرابطين، فهو القائل : «فلم يكن يقرب من أمير المسلمين و يحظى عنده إلا من عَلِم علم الفروع، أعني فروع مذهب مالك، فنفقت في ذلك الزمان كتب المذهب وعمل بمقتضاها ونبذ ما سواها، وكثر ذلك حتى نسي النظر في كتاب الله وحديث رسول الله صلى الله عليه وسلم.»

إذا، على خلفية التحريض على دولة المرابطين وممارستها الدينية العقائدية، قامت دولة الموحدين على يد مؤسسها ومنظرها الرئيسي، المهدي محمد بن تومرت، مستندة إلى «عقيدة أهل السنة والجماعة» و«الدعوة إلى التوحيد الخالص». وقد واصل عبد المؤمن بن علي (ت. ١١٦٣م) مشروع المهدي، وفي أيامه توسعت الحركة مستفيدة من العصبية التي كانت تربطها بقبيلة مصمودة.

وهنا أيضا ركز الباحث على انقسام المصادر بخصوص شخصية المهدي ونسبه، ففي حين يقر الموالون بنسبه الشريف ويرفعون من شأنه إلى حدّ التقديس – على غرار أبي بكر الصنهاجي (البيدق)، وابن القطان، وحتى ابن خلدون الذي دافع عن المهدي معتبرا أن إنكار نسبه إلى آل البيت «لا تعضده حجّة لهم مع أنّه إن ثبت أنّه ادّعاه وانتسب إليه فلا دليل يقوم على بطلانه لأنّ النّاس مصدّقون في أنسابهم» –، دحضت المصادر المالكية، ومنها ابن أبي زرع الذي تعرض له الباحث مليا، زعم نسب المهدي الشريف ووصفته ب «التلبيس» و «الشعوذة» و«الاحتيال» و«الدجل». ويتبع ذلك الصورة القاتمة التي رسمت للموحدين والتشهير بإسرافهم في سفك الدماء وقتل آلاف المرابطين، وانحرافهم عن الدين بإدخال عقائد فاسدة مخالفة للشريعة الإسلامية.

ويرى الباحث أن الشخصية الجدالية والمركبة للمهدي أدت بالمصادر المتأخرة إلى التركيز على عبد المؤمن بن علي وخاصة الخليفة أبي يوسف يعقوب الملقب بالمنصور (ت. ١١٩٩)، الذي تميز عهده

بالمشاريع المعمارية الكبرى وتشييد القلاع ومسجد الكتبية في مراكش واستكمال مدينة رباط الفتح والشروع في بناء جامع حسان الضخم الذي لم يكتمل بناؤه بسبب موته. وهذا الخليفة هو من احتضن ابن رشد وحماه وعددا آخر من العلماء والمفكرين وانتصر على ألفونسو الثامن ملك قشتالة وعلى بني غانية الموالين للمرابطين، ما جعله محل إجماع المصادر تقريبا، ولا سيما المالكية التي أوردت أنه «كان لا يقول بالعصمة في ابن تومرت».

كل هذه المواقف والتباينات رسمها الكاتب وبين خفاياها في عرض مستفيض لنتائج عدة تحقيقات تناولت «البحث عن المصادر المفقودة»، وفي مقدمتها تلك التي تعود إلى العصر الموحدي نفسه. ولم يكتف بالعودة إلى الكتب المنشورة بل عاد كذلك إلى المخطوطات الأصلية المودعة في مكتبة الإسكوريال بإسبانيا أو المكتبة الوطنية بباريس وغيرهما من المكتبات العالمية. وقد حاول لفت النظر إلى المستوى اللغوي لهذه المصادر التي تتبنى «لغة جديدة يسهل على الجميع التعرف إليها»، ودرس حقلها الدلالي المعجمي، الذي يرى أنه ميز «العقيدة الموحدية»، وهو إرث تواصل بعد وفاة المؤسس المهدي ابن تومرت وخلفائه.

ولفت الباحث النظر إلى ضرورة الانتباه إلى الخلفية الإيديولوجية التبريرية لهذه المصادر التي يعتمدها المستشرقون وكذلك المؤرخون العرب دون وعي كاف بذلك، فتراهم يعيدون نشرها وطبعها؛ ونبه أيضا إلى ضرورة إدراك الانتقاء التاريخي الذي حصل والذي نجد صداه تحديدا في المصادر المتأخرة التي مارست شكلا من الرقابة في انحياز تام للدولتين المرينية (بالمغرب) والحفصية (بإفريقية)، وقد عملتا، لأغراض سياسية وفكرية وعقائدية، على إتلاف العديد من المخطوطات الأصلية، وطمس الأدبيات التي أضفت طابع القداسة على الموحدين ومجدتهم، في محاولة واضحة للتصدي «لهرطقة» ابن تومرت وأتباعه. وبهذا فسر م.غ. أن جل المصادر التي أنتجت في ظل هاتين الدولتين حملت لواء المالكية التي أرادت أن تثبت قدمها في بلاد المغرب. وهنا يدعونا إلى ضرورة الانتباه إلى هذا الفرز التاريخي الذي له تأثير مباشر على الكتابات التاريخية، ويبين أن الدولة المرينية، وإن قامت على أنقاض الدولة الموحدية، عمدت إلى مراجعة الكتابات التاريخية، فقام أدباؤها ومؤرخوها بتصوير الحقبة الموحدية على أنها خروج عن السنة الأصلية، لكن نفس هذه المصادر لم تتمكن من إخفاء التطور الحضري والمعماري لهذه الدولة.

وفي نفس السياق، يدحض الباحث عن حق الرأي القائل بالثبوتية، فالمذهب المالكي تغير عبر الزمن ولا يمكن القول إنه بقي على ما هو عليه منذ القرن الثامن ولا يجب الاعتقاد أيضا أن اللغة العربية بقيت جامدة. هذه النظرة الجامدة الوثوقية في نشر المصادر وتحقيقها حذر منها م.غ. إذ أنها أدت إلى طمس الاختلافات المحلية وتوحيد اللغة العربية بشكل لا يراعي التحولات التاريخية والاختلافات القطرية، حتى ساد الاعتقاد الخاطئ أنه يمكن فهم وقراءة اللغة العربية القديمة بكل سهولة وأنها لم تتطور من القرون الوسطى. وهذا الجمود هو ذاته الذي جعل الكثير من المؤرخين العرب لا يزالون يستعملون كتب القرن التاسع عشر على اعتبار أنها مراجع أساسية يقع التعويل عليها بل وترجمتها دون مراعاة للتطور التاريخي والوعي بما تنطوي عليه آراء المستشرقين من خلفيات وأحكام قيمية. وهو أيضا وراء العودة إلى الماضي باعتبار أنه يمكن استنساخه، حتى أن بعض المجموعات الإرهابية وجدت في الماضي الموحدي السند الذي كانت تفتش عنه وانطلقت منه لتبرير سياساتها وأفعالها.

في مستوى ثان من العمل، قام م.غ. بدراسة الكتابات المعاصرة باعتبارها شكلا من أشكال إعادة الماضي واستغلاله لأغراض سياسية وإيديولوجية. وفي هذا وذاك، اعتمد المقاربة الانعكاسية التي غايتها تحليل السياق الذي أنتجت فيه هذه الأدبيات، وفهم مختلف المحطات المفصلية. قد يؤاخذ على اهتمامه أساسا بالعصر الموحدي وإهمال المرابطين ولكن هذا التركيز لا يمليه اختصاصه فحسب بل تحتمه كذلك المصادر التي تعامل معها وكذلك الواقع التراثي الذي انتهى إليه الميدان، فالمصادر التي تناولت العهد الموحدي والمخلفات الأثرية لهذه الدولة تفوق بكثير الإرث المرابطي على أهميته.

هذا المنحى في استدعاء الماضي لتبرير الوجود وتركيز أسس الشرعية التاريخية تواصل مع الدولتين السعدية والعلوية في المغرب، بل واستمر بشكل واضح في الفترة الاستعمارية. وقد رصد الباحث تطور الاهتمام الأوروبي بالمغرب انطلاقا من أعمال حسن الوزان (ليون الإفريقي)، الذي بنى كتابه على مقارنة بين المغرب وأوروبا، وتبعه في ذلك الرحالة لويس مارمول (Louis Marmol)، فنشأ معهما نوع أدبي جديد يعتمد على «وصف أفريقيا». وشكل هذان المؤلفان بداية اهتمام الغرب الأوروبي ببلاد المغرب والرغبة الناشئة في اكتشاف «اللغز المغربي» الذي أشعل منذ ذاك الزمن فضول الرحالة الذين سعوا إلى جمع العديد من المخطوطات، على غرار الباحث الهولندي جاكوب غوليوس (Jacob Golius) في القرن السابع عشر الذي اشترى عددا كبيرة من المخطوطات أثرت مكتبة ليدن.

في نهاية العصر الوسيط، كان الأوربيون ينظرون إلى المغرب على أنه «الآخر الكبير المجاور» على حد قولة جاك لاكان (Jacques Lacan)، وكان إلى حد ما عالما مجهولا غريبا مخيفا بالنسبة إليهم وكانت الهوة الفاصلة بين العالمين سحيقة وعميقة، فكل طرف لم يكن يعرف الآخر. ولكن، منذ القرن السادس عشر (عصر النهضة) وخاصة في عصر الأنوار (القرن الثامن عشر)، بدأت النظرة الغربية إلى المغرب تتغير فأصبح يُرى منطقة مجاورة وضاحية قريبة من أوروبا. واستقطب هذا الجار مفكري وسياسيي ومثقفي الغرب الأوروبي، وبدأ التوسع في الآن نفسه. وتساءل الغربيون عن «الهوية المغربية» القريبة منهم والتي لا يفصلهم عنها سوى«بحر الزقاق»، وقارنوا بينها وبين هويتهم وتساءلوا هل يمكن اعتبارها مرآة عاكسة لهم؟ وللاستدلال عن هذا التوجه الجديد استدعى م.غ. موقفين متضادين. الأول لفولتير (Voltaire)والثاني لجان جاك وروسو (Jean-Jacques Rousseau)، فكان الأول يطالب بالوثوق بالوقائع لاستنطاق الماضي (science des faits) بينما كان الثاني يدعو إلى التخلص منها («Écartons les faits !») لأنها لا يمكن أن تبني المعرفة التاريخية.

وقد بين م.غ. مدى تعقد العلاقات والرغبة في فهم الآخر من أجل إخضاعه والهيمنة عليه، فبرز في تلك الظروف، ومنذ القرن التاسع عشر، بباريس – التي مثلت آنذاك عاصمة الثقافة العالمية – وضمن حركة الاستشراق مفكرون عُنوا بموضوع المغرب مثل سيلفاستر دي ساسي (Silvestre de Sacy) وإرنست رينان (Ernest Renan) وبدأ هذا الالتفات إلى المغرب منذ اكتشاف عبد الرحمن بن خلدون بين ١٩٢٠ و١٩٣٠ والعودة إلى ابن رشد باعتباره شخصية محورية في الثقافة الإسلامية في العصر الموحدي.

كل هذا أفضى إلى الاهتمام بالموحدين باعتبارهم رمزا للدولة التي سيطرت ووحدت «المغرب والأندلس والبرتغال». وترسخ الاهتمام الفرنسي بالمغرب عامة باحتلال الجزائر وتبلور مشروع إخضاع بقية دوله مثل المغرب وتونس، وولدت نتيجة ذلك حركة فكرية ثقافية

أفرزت إنتاجا علميا مرتبطا بالسلطة وفي خدمة الجيش الاستعماري أطلق عليه «علم إفريقيا الفرنسية»، وباتت للتاريخ مكانة هامة في هذا المشروع الاستعماري الكبير.

ويرى م.غ. أن التوجه الفكري الكولونيالي تعمق مع احتلال المغرب سنة ١٩١٢، وهو احتلال تزامن مع حركية علمية أفرزت العديد من المؤلفات الأساسية التي ستصبح مرجعية. وكانت الفترة الموحدية، وتحديدا شخصية عبد المؤمن، محل الجدل الأوفر. وبدراسة الأدبيات الاستعمارية الغزيرة، بين م.غ. التأثر الكبير الذي خضع له الوطنيون الأوائل، خصوصا في موضوع الهوية الوطنية التي عرفها إرنست رينان «بأنها استفتاء يومي مرتبط بضمير واحد وتاريخ مشترك». وهذا التأثر نجده مثلا لدى الجزائري أحمد توفيق المدني الذي كتب تاريخ الجزائر بالعربية وهو تاريخ يستوعب الإنتاج الغربي. والغاية من كل ذلك القول: «لدينا تاريخ زاخر وحافل مثل المحتل». ويرى أن المنطلق في كل ذلك كان بالأساس العصر الموحدي الذي شهد بروز دولة قوية ومؤثرة. وبذلك استُغِل التاريخ لأغراض سياسية من أجل صياغة «سردية وطنية» أو «قصة وطنية» تعتمد أساسا على النموذج الخلدوني الهرمي الذي يقوم على الأطوار الثلاثة للدولة: فترة النشأة وفترة الازدهار وفترة التراجع والضمور.

وبالفعل، أبرز كتاب م.غ. بشكل غير مسبوق في اعتقادنا تلك العلاقة المعقدة التي وجدت بشكل واضح بين مدرستين تاريخيتين مرتبطتين بالاستشراق، كانت لكل منهما منطلقاتها وخفاياها، وهما المدرسة الفرنسية والمدرسة الإسبانية، وشكلت المقارنة بينهما اهتماما مركزيا من اهتمامات الكتاب. وأشار إلى أن إسبانيا لها علاقة معقدة مع ماضيها العربي-البربري يتأرجح بين إدماجه في «الرواية الوطنية» ورفضه المطلق باعتبار أن فترة المرابطين والموحدين لا تعدو سوى أن تكون عصرا من عصور الاحتلال وأن عجلة التاريخ تتغير، فبعد أن كانت حركة التوسع تسير من الجنوب إلى الشمال أصبحت في الفترة الاستعمارية تسير من الشمال إلى الجنوب. ويبلغ هذا الموقف المعادي حد إنكار الحضور العربي الإسلامي لدى لإغناسيو أولاقي (Ignacio Olague) في كتابه ذي العنوان المستفز «العرب لم يحتلوا قط إسبانيا»، وهو الموقف المغالي الذي دحضه بيار قيشار (Pierre Guichard) الذي أبان أن جزءا من تاريخ إسبانيا هو فعلا مرتبط بالعنصر العربي والبربري. وهذا التنافس الذي قد يبدو معرفيا، يستند في جوهره إلى أبعاد سياسية توسعية بعد احتلال المغرب سنة ١٩١٢، فبينما دافع العلماء والمفكرون الفرنسيون عن مفهوم «الغرب الإسلامي» (Occident musulman)، الذي تشكل إسبانيا في نظرهم جزءا منه، طرح العلماء الإسبان مصطلح العالم الإسباني-المغربي (Le monde hispano-maghrébin) الذي مثلت الأندلس نواته الأصلية، مما يفضي إلى القول إن التراث الأندلسي جزء أساسي من هوية إسبانيا.

ويتحفنا م.غ. بصفحات في غاية الأهمية والمتعة حول السياسة الفرنسية لاسترداد العصر الموحدي واستلهامه وتبنيه باعتباره العصر الذهبي، مما برر وجود مآثرهم على الطوابع البريدية وفي العمارة الاستعمارية وفي البرامج العلمية، وركز في هذا الصدد مثلا على تأثر المباني الاستعمارية بالإرث الموحدي وسعيها إلى إيجاد طابع خاص ومميز نراه في اعتماد الضفائر (entrelacs) التي استلهمت المآذن الموحدية، مثل صومعة الخرالدا بأشبيلية والكتبية بمراكش وجامع حسان بالرباط. وتتبع توجهات الدولة الفرنسية خاصة مع المقيم العام هوبار ليوتي (Hubert Lyautey) الذي كان له مشروع فطن، يعتمد الرجوع إلى الإمبراطوريات البربرية، فأولى الفترة الموحدية كل الاهتمام، وأسس من أجل ذلك المعهد العالي للدراسات المغربية سنة ١٩٢٠، فكانت هذه المؤسسة العلمية في ارتباط وثيق بالتوجهات الاستعمارية العامة والاستغلال الإيديولوجي للعصر الموحدي باعتباره فترة العصر الذهبي والنموذجي للمغرب. وكان لمديرها العام الباحث إيفاريست ليفي بروفنسال (Évariste Lévi-Provençal) دور بارز في إثراء المكتبة التاريخية الموحدية بنشر مصادر أولية كانت مجهولة وفهرسة عدد كبير من المخطوطات بالمغرب وإسبانيا (الإسكوريال). هذه المؤسسة هي التي جددت المناهج وطرق البحث وكانت أول من أولى عناية إلى الجانب الأثري، وبفضل علمائها، تم استكشاف مدينة تنمال من طرف الباحث الفرنسي إدمون دوتي (Edmond Doutté) ودراسة المساجد والحصون الموحدية من طرف الباحثين هنري تيراس (Henri Terrasse) وريني باسي (René Basset) وترميم مسجد الكتبية بمراكش. وهي التي أنشأت المجلة العلمية المرموقة هسبريس (Hespéris) التي استقطبت عددا كبيرا من العلماء الدارسين للمغرب في كل العصور. ولا نغالي إن قلنا إن دراسة م.غ. أحسن ما كتب عن تاريخ هذه المؤسسة التي شكلت نواة الجامعة المغربية بعد الاستقلال. وقد حاولت إسبانيا مجاراة النسق الفرنسي دون نجاح كبير فقامت بتأسيس معهد فرانكو للدراسات والبحوث الإسبانية العربية بتطوان عام ١٩٤٩ وأصدرت مجلة تامودا (Tamuda) التي أدمجت بعد استقلال المغرب مع هسبريس في مجلة واحدة اسمها هسبريس تامودا (Hespéris Tamuda). وقد تعرض الكتاب مطولا إلى ذاك الصراع الخفي بين الدولتين وتأثيره المباشر على الإنتاج العلمي وفي نحت المصطلحات التي لم تكن خالية من خلفيات إيديولوجية.

ويمكن من خلال هذه الأطروحة القيام بجرد شامل لكل المصادر العربية وكذلك بجرد مستفيض للباحثين الغربيين «المستشرقين»، الذين نكتشف في كل صفحة من الكتاب عددهم الضخم وكذلك مساهماتهم العلمية التي لا يمكن أن نغفلها، فقلما نعثر على مستشرق أو أثري عمل بالمغرب أو درسه لم يرد ذكره والتعريف به. وببراعة وذكاء، يقحمنا الكاتب في صلب هذه الجماعة العلمية بالتعرض إلى السير الذاتية والعلاقات التي كانت قائمة بين البعض منهم، في تناغم أحيانا وتناقض وتصادم أحيانا أخرى. فاكتشاف تنمال مثلا كان في جو من الصراع بين إدمون دوتي وألفريد لوشاتليي (Alfred Le Chatelier).

ومع أن الحركية العلمية التاريخية والثقافية كانت فرنسية وإسبانية وغربية عموما، أشار الباحث إلى أنها قابلتها فكرة القومية العربية بمصر خاصة والتي رفعت شعار «المغرب العربي الكبير» في إطار فلسفي عروبي، وهو ما يفسر طبع كتاب المن بالإمامة بالقاهرة ونشر العديد من الدراسات للباحث الفلسطيني إحسان عباس وغيره من المثقفين. غير أن علماء المغرب ومثقفيه كانت تقودهم فكرة أخرى مغايرة وهي «تأسيس سردية الدولة الوطنية» ومثال ذلك المؤرخ والدبلوماسي المغربي عبد الهادي التازي.

على الرغم من طوله، يُظهر الكتاب بوضوح كيف أصبح الماضي الموحدي جزءا أساسيا من السردية الوطنية المغربية التي كانت توحد القوى الوطنية في مواجهة الحماية، وتقطع مع السلالات الشريفة القديمة، وقد أسهمت الحكومة المغربية نفسها، في عهد الملك الحسن الثاني، في إعادة الاعتبار للموحدين من خلال ترميم الآثار ونشر وتحقيق المخطوطات.

وينبه الباحث إلى خطورة اللغة فالمصطلحات المستعملة ليست بريئة ولها أبعاد خفية ومحتويات ضمنية لا بد من التفطن إليها، فمصطلحات مثل «إفريقيا الشمالية» (Afrique du Nord) و«الغرب

الإسلامي» (Occident musulman) و«المغرب» (Maghreb) و«الأندلس» (al-Andalus) و«إسبانيا الإسلامية» (Espagne musulmane) و«الموريين» (Maures) و«البربر» (Berbères) و«السارَزان» (Sarrasins) وغيرها كلها محملة بالمواقف الإيديولوجية ولا يمكن في كثير من الأحيان تجنبها أو تغييرها بسهولة رغم ما لها من وزن دلالي وسياسي.

أسلوب الكتاب بحثي استقصائي فيه استدعاء للمصادر وعدد هائل من المراجع الاستشراقية ومحاولة لوضعها في إطارها التاريخي والسياسي والثقافي والفكري. ويدعونا الكاتب إلى الحذر من خلط علم التاريخ بالمواقف والعواطف واستعماله في نحت الضمير الجمعي المندس في اللاوعي. إنه حقا كتاب جدير بالمطالعة ويدعو إلى التفكير، ولم لا يطبق منهجه على مجالات جغرافية وزمنية أخرى؟ ولكن من أين لنا أن نأتي بالمعرفة الموسوعية للأستاذ م. غ؟

أ. د. فوزي محفوظ،
المجمع التونسي للعلوم والآداب والفنون (بيت الحكمة)